الفصل الأول

فى

أصل الجاحظ ونسبه وجنسه ولقبه

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، الليثى الكنانى ، وقد زعم بعض الرواة أنه كان مولى لأبى القَلَمَّسِ عمرو بن قِلَع الفُقَيْمِى النَّسَّاء . وكان إلى هذه الأسرة نسىء الشهور فى الجاهلية [1] وكان القَلَمَّس

(١) كان أول من نسأ الشهور على العرب فى الجاهلية ، فأحل لهم منها ما أحل، وحرم عليهم منها ما حرم « القلمس » وهو حذيفة بن عبد بن فقيم الكنانى . ثم قام من بعده على ذلك ولده « عباد » بن حذيفة . ثم قام على أثره ولده « قلع » بن عباد ، ثم « أمية » بن قلع ،ولعله هو المسمى فى الأصل عمرو بن قلع وكان يكنى بأبى القلمس . ثم « عوف » بن أمية . ثم « أبو ثمامة جنادة » بن عوف . وهو آخرهم فى هذا الشأن. وعليه قام الاسلام . ويروى أن أبا ثمامة جنادة بن عوف أسلم وحضر الحج فى زمن عمر فرأى الناس يزدحمون على الحجر الأسود فنادى : أيها الناس إنى قد أجرته منكم ! فخفقه عمر بالدرة وقال له : ويحك ، إن الله قد أبطل أمر الجاهلية ؟. وكان الواحد من هؤلاء النسأة يقف فى الموسم قبل الاسلام عند جمرة العقبة وحوله قبائل العرب ويقول : اللهم إنى ناسىء الشهور وواضعها مواضعها ، لا أعاب ولا أحاب ، اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر (يعنى محرم وصفر) وكذلك فى الرجبين (يعنى رجب وشعبان) إنفروا على اسم الله. وقد أشير إلى هذا الحدث فى القرآن الكريم ، إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، والنسيء فى اللغة التأخير

من حكام العرب وذوى الرأى فيهم والرُّجحان عندهم . وكان يحلل من الشهور ما يشاء فتحِل ، ويحرم منها ما يريد فتحرم . كذلك كان بنوه من بعده . وما كان فى العرب من يقف لأحد منهم فى هذا الشأن ، أو يخالفه فيه .

ففى هذه الأسرة الماجدة نشأ أصل الجاحظ وتوشجت أعراقه ، وإليها كان انتماؤه وانتماء آبائه وأجداده . ولعل أول من عرف منهم فزارة الذى قيل إنه كان جمالا لأحد رؤسها . قال يَمُوتُ بنُ المُزَرِّعِ [1] — وكان الجاحظ خال أمه ، لا كما قيل من أنه كان خاله — : كان فزارة جد الجاحظ أسود ، وكان جمالا لعمرو بن قِلَع الكنانى .

ومن هنا قد يتطرق الشك إلى الأذهان فى عربية الجاحظ وأسرته — وخصوصاً لما زعمه بعض الرواة من ولائه لأبى القلمس الكنانى — ويفتح باب التظنى فى جنسيته . فيلجه عليه الشُّعوبىُّ ومقلده ممن لا يرون للعرب فضيلة يمتازون بها على غيرهم من الأمم . وقد يَعرض هذا السؤال : هل كانت أسرة الجاحظ عربية سامية ، أم كانت من العناصر الأفريقية التى تداخلت فى العنصر العربى بعامل الجوار وما يستتبعه ؟ وهل وقع على أحد من أسلافها الرق أو الإسار ، أم تناسلت على الحرية السليمة من الشوائب والأكدار ؟

أما جوابى على هذا فهو : إن السواد لا يصح أن يؤخذ دليلا على نفى العروبة فقد كان هذا اللون شائعاً فى العرب . بل ربما عد مما كانت تفخر به ،

---

(١) هو أبو بكر محمد بن موسى بن سيار العبقسى البصرى . غلب عليه اسم « يموت بن المزرع » وبهذا الاسم اشتهر . كان الجاحظ خال أمه . وكان من مشايخ العلم والأدب ، قيما بالأخبار ، حسن الشعر . أخذ عن الجاحظ وأبى عثمان المازنى وغيرهما . دخل بغداد ثم قدم مصر سنة ٣٠٣ هـ ثم ذهب إلى دمشق وبها كانت وفاته سنة ٣٠٤ هـ

كثيراً ما كانت تُعجَب به وتؤثره على غيره من الألوان الأخر ، وتصفه الخضرة، وتنعت الخضرة به . ومن مذكورى السود فيهم ، الأغربة ، وهم : عَنْتَرَةُ (١) وخُفَافُ بنُ نُدْبَةَ (٢) وأبو عُمير بن الحُباب (٣) والسُّلَيْكُ بن السُّلَكَة (٤) وهِشامُ بن عُقْبَةَ (٥) وعبد الله بن خازِم (٦) وعُمَيْرُ بن أبي عُمير ، وهمَّامُ بن مُطَرِّفٍ (٧) ومُنْتَشِرُ بنُ وَهْبٍ (٨)

(١) هو عنترة بن شداد العبسى الفارس الشاعر المشهور . كانت أمه أمة حبشية تدعى زبيبة مات سنة ٦١٥ م

(٢) هو أبو خراشة خفاف بن عمير السلمى . كانت أمه ندبة عربية إلا أنها كانت سبية ، وإليها كان ينسب . وكان فارسا شاعرا بعيد الذكر . أسلم وشهد حنينا والفتح وكان إليه لواء بنى سليم . وهو من خيار الصحابة . مات فى خلافة عمر

(٣) هو أبو عمير بن الحباب . كان فارسا مغوارا وشاعرا مفلقا . وكان من رجال مصعب بن الزبير . أغار على قبائل كلب وأنكى فيها ثم قتلته تغلب وثأر له زفر بن الحارث

(٤) هو السليك بن السلكة . كان من مغاوير الشجعان ومن فحول العدائين الذين يسبقون الخيل عدوا . قتله أنس بن مدرك الخثعمى

(٥) هو هشام بن عقبة بن أبى معيط . ولاه عمر بن عبد العزيز على أعمال قنسرين

(٦) هو أبو صالح الأمير عبد الله بن خازم السلمى . كان من الأبطال الشجعان . فتح الفتوحات الجليلة وولى الأعمال العظيمة لبنى أمية . ولى خراسان عشرسنين وفتح الطبسين ثم ثار به جند خراسان من العرب بقيادة وكيع ابن الدورقية فخر صريعا فى المعركة سنة ٥٦ هـ ٦٧٥ م

(٧) هو همام بن مطرف العقيلى . كان على صدقات بنى عامر أيام كان مروان بن الحكم واليا على المدينة من قبل معاوية

(٨) هو منتشر بن وهب أخو أعشى باهلة . كان فارسا شجاعا صاحب غارات فى الجاهلية . قتله هند بن أسماء الفزارى . وللأعشى فيه مرثية من أبلغ المراثى

ومَطَرُ بن أوْفى [١] وتأبَّط شراً [٢] والشَّنْفرَى [٣] وحاجزُ [٤] — وإنما لقبوا بالأغربة لأن أمهاتهم كُنَّ إماء — فسواد فزارة جد الجاحظ لا يعد دليلا على نفى العروبة عنه . وأما الرق فلم يرد عن أحد من الرواة والنسابين وأصحاب الأخبار أنه وقع على أحد من أجداده . وكذلك الإسار، فانه لم يُصِبْ أحدا منهم . ولا عبرة بوصفهم بالولاء لآل فقيم ، فليس الوصف بالولاء مما ينفى الحرية ، فالولى عند العرب : المحب ، والصديق ، والنصير ، والمولى ، والعبد ، والمعتِق ، والمعتَق ، والصاحب ، والقريب — كالعم ، وابن العم ، والابن ، وابن الأخت — والحليف ، والنزيل ، والشريك ، والولى ، والرب ، والناصر ، والمنعِم ، والمنعَم عليه ، والتابع ، والصهر . وقد تكون قبيلة عربية صريحة النسب مولاةً لقبيلة أخرى عربية

وأما قيام فزارة على إبل عمرو بن قِلع، فهذا إن دل على شئ فليس يدل إلا على أنه كان يحسن القيام عليها ، ولهذا استكفاه مولاه عظيما من أمره . نعم إن الجاحظ قد ذكر فى كتابه « الحيوان ١٣٤ ج ٣ » أن أصحاب الإبل يرغبون فى اتخاذ النوبة والبربر والروم للابل ، يرون أنهم يصلحون على معايشها وتصلح على قيامهم عليها . ولكن ذلك لم يكن عاماً فى سائر

(١) هو مطر بن أوفى . كان شجاعا أيدا ذا بأس وقوة

(٢) هو ثابت بن جابر . تأبط شرا . كان من أشجع العدائين صاحب غارات ونكايات فى أحياء العرب . وكان أبو كبير الهذلى زوج أمه وله فيه شعر

(٣) هو الشنفرى الأزدى . كان شجاعا بطلا ذا غارات . وكان من أشهر العدائين . وهو شاعر مشهور له لامية العرب

(٤) هو حاجز بن عوف الأزدى . شاعر جاهلى مقل . وهو أحد العدائين المغاوير

العرب ، وما هى إلا رغبة إن حصل عليها بعضهم ، فليس فى الإمكان أن يبلغها كلهم . وقد كان فى مقدور الجاحظ أن يشير فى هذا المقام إلى عنصر جده، إن كان به دم يمت بشبهة نسب إلى أحد هاتيك العناصر الثلاثة . والجاحظ أحكم من أن يبرأ من أصله، وأعقل من أن يغمر جنسه . وأخرى فلو كان فى دم الجاحظ شئ، قليل أو كثير، من دم الأجناس غير العربية لرأيناه فى رأس الشعوبية الذين لا يرون للعرب شيئاً ولا يعترفون لهم بفضل ، وهاهو أستاذه أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى(١) كان رأساً فى الشعوبية. ولكنا نرى الجاحظ فى كتبه وفى كل ماروى عنه، شديد العصبية للعرب، لا يرى فضيلة فى أمة إلا ويروى أكبر منها لهم . لا بل هو لا يرى أمة من أمم الأرض تَفْضُلُ الأمة العربية بأي خَصلة من خِصال الخير والنُّبل ، وما من مزية من مزايا الانسانية، إلا والعرب أسبق الأمم إليها وأخصهم بها — ومع هذا كله فقد قطع المحققون بأن الجاحظ كان كنانيا صليبة ، يعنى أنه كان خالص النسب ، عريق الأصل فى العرب . وممن قرر ذلك أبو القاسم البلخى(٢) وابن حزم(٣) إذاً فهو عربى ، من سلالة عربية ، نشأ فى بيت

(١) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى : كان مولى لتيم قريش. وكان عظيم الدراية واسع الرواية إخباريا نساباً عالما بأحوال العرب . وكان شعوبيا وضع كتابا فى مثالب العرب . وكان يرى رأى الخوارج . عاش حوالى مائتى عام فيما قيل. ومات سنة ٢١١ هـ

(٢) هو أبو القاسم عبد الله بن احمد بن محمود الكعبى البلخى . كان من أكابر المتكلمين ومن رؤس المعتزلة . انفرد بمقالات خاصة تابعه عليها قوم فلقبوا بالكعبية ، وله كتاب فى تاريخ المعتزلة . توفى سنة ٣١٧ هـ

(٣) هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم . فارسى الأصل أندلسى الميلاد والنشأة . صاحب التصانيف الكثيرة فى الحديث والفقه والجدل. ومن أشهر مصنفاته كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ولد بقرطبة فى رمضان سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٤٥٦ هـ

من أجل بيوتات العرب ومن أعرقها فى المجد والشرف .

أما لقبه « الجاحظ » فقد جاء من قبل أنه كان مشوه الخلق ، جاحظ العينين . أى بارزهما . وربما لقب « بالحدقى » أيضا ، لأنه كان ناتئ الحدقتين . وليس هذا مما يعيبه مع علمه وفضله وبارع أدبه . فكثير من العظماء كان مشوه أو أكثر منه دمامة وتشويها . فهذا سقراط [1] شيخ الفلاسفة الأقدمين ، قد كان مشوه الخلق ، جاحظ العينين ، أفطس الأنف ، ضخم الشفتين . وبالجاحظ بعض هذه العيوب . ومع هذا فقد عُدل به عن اسمه الأصلى « عمرو » وعن كنيته « أبى عثمان » واشتهر بهذا اللقب المنتزع من أقبح شئ فى خَلقه .

والظاهر أن الجاحظ كان لا يعجبه أن يدعى بهذا اللقب ، وكان يتبرم بمن يدعوه به . ولهذا كان يجهد نفسه فى أن يقرر فى أذهان الناس أن اسمه « عمرو » وأنه يحب أن يدعى بهذا الاسم ، وأن اسم « عمرو » أرشق الأسماء وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجا . وكان يسميه « الاسم المظلوم » لأنهم ألزقوا به الواو التى ليست من جنسه ولا فيه دليل عليها ولا إشارة إليها . وكان يقول : إن هذا الاسم لم يقع فى الجاهلية والاسلام إلا على فارس مذكور ، أو ملك

(١) هو سقراط فيلسوف اليونان القدماء كان أبوه نحاتا وأمه قابلة . وكان ذا مواهب فاضلة سمت به إلى ذروة المجد النفسى . لم يؤلف كتابا ولم يضع مصنفا ، بل سرت تعاليمه من نفوس تلاميذه مسرى الكهرباء ، فخلد فيهم مجده ، وعنهم انتشرت فلسفته . ولد بأثينا سنة ٤٦٩ قبل الميلاد ، وكانت وفاته بالسم بحكم القضاء الخاطىء سنة ٣٩٧ قبل الميلاد

مشهور، أو سيد مطاع، أو رئيس متبوع. أمثال: عمرو بن هاشم [١] وعمرو بن سعيد الأكبر [٢] وعمرو بن سعيد الأشدق [٣] وعمرو بن العاص [٤] وعمرو بن حُمَة [٥] وعمرو بن يحيى بن قُمَئة، وعمرو بن معديكرب [٦] وعمرو بن عبدود [٧] وعمرو بن الشريد [٨] وعمرو

(١) هو عمرو بن عبد مناف، وهو هاشم جد النبي عليه الصلاة والسلام. وقد مات بغزة من أرض فلسطين حين ورد اليها فى تجارته، وبه سميت غزة هاشم

(٢) هو عمرو بن سعيد بن العاص: كان من أكابر رجالات بني أمية، وكان من مهاجرة الحبشة. قتل بأجنادين بالشام فى خلافة أبي بكر سنة ١٣ هـ

(٣) هو عمرو بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص. وقد لقبه معاوية بالأشدق حين رآه على صغره فصيحا بينا. كان من فحول بني أمية وعظمائهم. وكان ينازع عبد الملك بن مروان الخلافة فاغتاله عبد الملك وتخلص منه سنة ٧٠ هـ

(٤) هو الأمير عمرو بن العاص الفاتح العظيم والسياسي المحنك والداهية الدهيا. فتح مصر وقهر جيوش الروم. وعاون معاوية على علي فى حروبه. وتوفى بمصر سنة ٥١ هـ ودفن بجبل المقطم فى ناحية الفخ وكانت طريق الناس الى الحجاز

(٥) هو عمرو بن حممة الدوسي. كان فى أول أمره شجاعا باسلا، ثم صار سيد قومه. وهو أحد من كانت تنتجع إليه العرب. وفى رواية ابن عباس أنه قضى بين العرب ثلاث مائة سنة. وهو أول من حكم فى الخنى باتباع المال. وفى بعض الروايات أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم. ولما مات رثته الشعراء برثاء جيدة

(٦) هو عمرو بن معدي كرب: البطل الفذاء ذو الغارات والمعارك فى الجاهلية والاسلام توفى بعد فتح نهاوند سنة ٢٠ هـ

(٧) هو عمرو بن عبدود: رأس الأحزاب وقائدها. قتله علي بن أبي طالب يوم الخندق

(٨) هو عمرو بن الشريد: والد الخنساء وكان من سادات العرب وشجعانهم الأبطال

ابن الحمق[١] وعمرو بن عبيد[٢] وعمرو بن قائد[٣]

ولعل الجاحظ كان يريد أن يقول فى إثر ذلك : فلم لا يدعونى الناس «عمرو بن بحر» بدل هذا اللقب البغيض ... ؟ وله الحق فى ذلك . فما من انسان كائنا من كان إلا وهو يبغض من يدعوه بلقب ، ولا سيما إذا كان هذا اللقب يشير إلى عيب فى صاحبه إن خَلقا وإن خُلقا

وو علم الجاحظ أن لقبه هذا سيكون فيما بعد عصره نعتا من أجل النعوت، وأنه سيكون صفة من أشرف الصفات التى عمل الكثيرون من عظماء الرجال وأكابر الرؤساء ، وخواص أهل الفضل، على أن يكون لهم شرف الانتساب إليه ، ومجد الاتصاف به — لسره من لقبه أكثر مما أعجبه من إسمه . فقد أصبح هذا اللقب شعار مدرسة جامعة ، ودليلا على التبحر فى العلوم والتوسع فى الآداب والتفوق فى فنون البلاغة وصنوف البيان . فهذا أبو زيد أحمد بن سهل البلخى[٤] ، وناهيك به من فيلسوف حكيم ، كان ينعت « بجاحظ

(١) هو عمرو بن الحمق : من خزاعة ، أسلم بعد الحديبية وله صحبة . وكان من شيعة على، ذا بأس وشدة. أقام بالشام ثم بالكوفة ثم قدم مصر . جاوز الثمانين من عمره ، ثم قتل يوم الحرة سنة ٦٣ هـ وحمل رأسه الى معاوية وهو أول رأس حمل فى الاسلام من بلد إلى بلد

(٢) هو عمرو بن عبيد بن باب الزاهد العابد الناسك شيخ المعتزلة وامامهم . وقد كتبنا له ترجمة ملخصة ونشرناها فى جريدة السياسة الأسبوعية وسترى له ترجمة مستفيضة فى كتابنا « شيوخ المعتزلة ومذاهبهم » الذى سننشره بالطبع قريبا . ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٤٤ هـ

(٣) هو أبو على عمرو بن قائد الأسوارى . أخذ عن أبى الهذيل العلاف ثم عن أبى اسحق النظام . وكان رأس فرقة من المعتزلة . وله آراء ومقالات خاصة

(٤) هو أبو زيد البلخى . راجع ما كتبناه عنه فى كتاب المقابسات ص ١٤٨

خراسان » وهذا أبو الفضل ابن العميد[١] ، وشرعك من وزير عليم كان يرتاح الى من يصفه « بالجاحظ الثانى » وهذا أبو حيان التوحيدى[٢] وهمك من كاتب بليغ ، كان ينازع ابن العميد صفة « الجاحظ الثانى » وهذا محمود بن عزيز[٣] ، وحسبك من عالم جليل ، كان ينعت «بالجاحظ الثانى» وهذا أبو محمد الحسن بن خلاد القاضى الرامهرمزى[٤] . قال عنه ابن النديم انه كان حسن التأليف ، مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ . وذكر له عدة مؤلفات . وهذا أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى[٥] . قال عنه ابن النديم : إنه مليح التصنيف ، جيد التأليف . يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب . وذكر له عدة مصنفات . وهناك غير هؤلاء ممن لم تسع الذاكرة أسماءهم كلهم كان يود بجدع الأنف الانتساب فى المعارف والآداب والبلاغة والبيان إلى الجاحظية الأدبية . فاسم الجاحظ عنوان على مدرسة جامعة فى فنون العلوم وصنوف الآداب وألوان البلاغات

(١) هو ابو الفضل بن العميد راجع ما كتبناه عنه فى كتاب المقابسات ص ٦١

(٢) هو ابو حيان التوحيدى : راجع ما كتبناه عنه فى أول كتاب المقابسات

(٣) هو ابو القاسم شمس المشرق محمود بن عزيز العارضى الخوارزمى . كان من أفاضل الناس فى عصره جمع بين الأدب واللغة والمنطق والفلسفة والفقه والنظر والخلاف والحديث . وكان كاتباً بليغاً ذا اقتنان . وكان فى خدمة خوارزم شاه مكرماً مبجلا . ثم فارقه إلى مرو . وكان الزمخشرى من المعجبين بفضله وسعة معارفه وكان يدعوه « الجاحظ الثانى » لكثرة حفظه وفصاحة لفظه . احتقر الدنيا وملّ الحياة فذبح نفسه بيده سنة ٤٣١ هـ ووجد بخطه رقعة فيها « هذا ما عملته أيدينا فلا يؤاخذ به غيرنا »

(٤) هو القاضى أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد . وكان سمع قليله يشرون المقتار يضرب بسهم نافذ فى الأدب وله شعر حسن وشعر جيد . مات فى حدود سنة ٣٦٠ هـ

(٥) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى صاحب كتاب الموازنة بين الطائيين كان جيد الفهم حسن الدراية بارع الادب . مات سنة ٣٧١ هـ

الفصل الثانى

فى

تحقيق مولده ومنشائه ، وهل كان محدثا ؟

للرواة والمؤرخين خلاف فى مولد الجاحظ ، فمنهم من زعم أنه ولد فى سنة ١٥٩ هـ ، ومنهم من يرى غير ذلك ، لكن الذى لايصح أن يشك فى صدقه أويرتاب فى صوابه ،ماقرره هو عن نفسه،ونقله الينا ياقوت[١] فى معجمه

---

(١) هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومى . أسر صغيراً من بلاده وابتاعه رجل من تجار بغداد فعلمه وثقفه ورباه ودربه على التجارة فكان كثير الأسفار ، طوافا فى الأمصار ،معنيابطلب التجارة والكسب وبعد أن مات سيده استقل بالعمل وحده وأضاف الى أعماله الاتجار بالكتب.وكان كثير المطالعة مشغوفا بها . ومن أشهر مؤلفاته كتاب «ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب» المعروف « بمعجم الأدباء » وقد كان مطمورا فى زوايا المكاتب فعثر على بعضه العالم المستشرق الانجليزى الجليل المستر مرجليوث ونشر منه أجزاء بالطبع جزاه الله خيرا . وله كتاب « معجم البلدان » طبع فى أوربا منذ زمن وأعيد طبعه فى مصر سنة ١٩٠٦ وألحقه طابعه أمين أفندى الخانجى بمستدرك أسماه « منجم العمران » . وله غير هذين كتب كثيرة غير معروف إلى الآن عنها شىء . وكان مولده ببلاد الروم سنة ٥٧٥ هـ وتوفى سنة ٦٢٦ هـ

فقد روى أنه قال : أنا أسن من أبي نُوَاسٍ[١] بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) وولد في آخرها . . . وليس بعد هذا نص يعتد به في هذا الشأن

ومن الغريب أن ابن خلكان[٢] يروى في كتابه عن أبي بكر الخطيب البغدادي[٣] أنه ذكر أبا نواس في تاريخه الذي وضعه لبغداد وقال: إن ميلاده (يعني أبا نواس) كان في سنة ١٤٦ . وهذا لا يصح الأخذ به أو الاعتماد عليه بعد نص الجاحظ عن نفسه وعنه

وقد كان ميلاد الجاحظ بالبصرة في ذلك التاريخ ، وقد مضى على تأسيسها ١٣٦ سنة ، فقد أسسها الأمير عتبة بن غزوان[٤] بأمر الخليفة عمر

(١) هو الحسن بن هانيء الحكمي الشاعر الأشهر المعروف بأبي نواس ولد سنة ١٥٠ وتوفي سنة ١٩٨ وهو أشهر من أن يعرف ههنا

(٢) هو القاضي أبو العباس شمس الدين أحمد بن ابراهيم المعروف بابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان » وهو كتاب شهدت شهادة عدل أن مؤلفه كان من أكابر الأدباء وأفاضل الكتاب وفحول البلغاء ولي التدريس والقضاء بمصر والشام زمنا . وكان على جلالة قدره ميالا إلى اللهو والمجون وكان مولده بمدينة إربل سنة ٦٠٨ هـ وتوفي بدمشق ودفن بسفح قاسيون سنة ٦٨١ هـ

(٣) هو أبو بكر أحمد بن علي البغدادي الخطيب الحافظ المؤرخ الشهير كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين ، وكان واسع الاطلاع إلى الغاية التي لا ترام . وله كتاب تاريخ بغداد وقد شرع في طبعه بمصر الآن ولد في بغداد سنة ٣٩٢ هـ وتوفي سنة ٤٦٣ هـ

(٤) هو عتبة بن غزوان بن الحارث المازني . صحابي من المهاجرين الأولين هاجر إلى المدينة وهو في سن الاربعين . وكان رجلا طوالا شجاعا جيد

ابن الخطاب[١] فى سنة ١٤ هـ . وبعد أن مضى على تأسيس الكوفة ١٣٣ سنة ، فقد أسسها الأمير سعد بن أبى وقاص[٢] بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب فى سنة ١٧ هـ . وبعد أن مضى على إنشاء بغداد أربع سنين ، فقد وضع أبو جعفر المنصور[٣] ثانى الخلفاء العباسيين قواعدها فى سنة ١٤٦ هـ

الرماية . شهد بدرا ، وفتح الابلة ، واختط البصرة وبنى مسجدها فى عهد عمر ابن الخطاب . توفى فى طريق مكة سنة ١٧ هـ

(١) هو الامام العظيم عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الاسلام ، ووفقه الى الفتوحات الجسام ، وشد أركان ملكه بالعدل والانصاف ، وباعد بينه وبين الجور والاعتساف . واسنا نحاول هنا ترجمته فهذا شىء فوق المرام ، كانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال . طعنه الفاتك فيروز أبو لؤلؤه غلام المغيرة بن شعبة سنة ٢٣ هـ فمات عن خمس وخمسين سنة

(٢) هو القائد الباسل العظيم سعد بن مالك بن أهيب بن أبى وقاص مزلزل أركان دولة الأكاسرة وصاحب الفتوحات العظيمة مات فى قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة وذلك فى سنة ٥٥ هـ وقد ناهز السبعين من عمره

(٣) هو الخليفة عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، أبو جعفر المنصور كان مولده بالشراة سنة ٩٥ هـ وبويع له بالخلافة بالأنبار يوم مات أخوه أبو العباس سنة ١٤٦ هـ وهو الذى مهد الخلافة العباسية بحزمه وعزمه ويقظته . قال محمد بن على العبدى الخراسانى الاخبارى فى وصفه : كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبى طالب ، وقد كان قبل ذلك أمرهم واحداً ، وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه — وهو أبو هؤلاء النوبختية — وابراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك ، وعلى بن عيسى الأسطرلابى المنجم . وهو أول خليفة

إذاً ولد الجاحظ والمصران — البصرة والكوفة — يَعُبّان بعمرانهما ، ويَزْخَران بوسائل الحياة فيهما ، ويتنافسان فى صنوف العلوم وضروب العرفان ، ويتباريان فى ميادين الفنون وحلبات الآداب ، ويدلان على سائر الأمصار الاسلامية بما خرجت حلقاتهما من رجال كانوا عدة اللغة العربية ، وأسناد آدابها ، وينابيع علومها ، ومذاخر فنونها ، وشموس معارفها . أما بغداد فقد كانت إذ ذاك لاتزال فى مهد الطفولة ، ولم يكن عمرانها قد استبحر ولم يكن عرفانها متسع النطاق ممتد الرواق ، إلا أنها كانت ، بعناية مؤسسها وأخلافه العظماء ، سريعة الخطى فى ميدان التقدم ، ناهضة فى معارج الشرف حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من التفوق فى الحضارة والعمران عالم يجارها فيه أية مدينة أخرى فى العالم القديم

وكانت نشأة الجاحظ بالبصرة ، وظل بها عاكفاً على التعلم والدرس والإطلاع . كما كان مقصود الجانب للاستفادة من مناظراته ، والتفقه بمحاضراته

ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية ، منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند ، وترجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الأرثماطيق وكتاب أقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والقهلوية والفارسية والسريانية وخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا بها . وفى أيامه وضع محمد بن اسحق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدا ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة ، وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب فاتخذ ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها ، وأفضت الخلافة إليه وقد نظر فى العلوم وقرأ المذاهب وارتاض فى الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم . توفى سنة ١٥٣ﻫ

وكان كثيراً ما يترك البصرة قاصداً غيرها من المدن الاسلامية المعروفة فى ذلك العهد للبحث والاستقراء ولقاء العلماء ثم يعود إليها مفعم الوطاب بصنوف العلوم وضروب الآداب . ولما جاوز الخمسين من عمره عنّت له الرحلة إلى بغداد واتخاذها دار إقامة له، وذلك فى عهد المأمون[1] الذى طار بها إلى أوج الرقى والعلاء . وكان دخوله إلى بغداد فى سنة ٢٠٤ ، وفى الوقت الذى قدم إليها المأمون فيه . وما هو أن استقر به المقام فيها حتى تصدر للتعليم والمناظرة والتأديب والمحاضرة ، فقصد إليه العلماء ، وأمه الأدباء ، وأقبل عليه الطلاب من كل صنف ومن كل جنس ، وعلى اختلاف الملل وتباين النحل . وكان

---

(١) هو عبد الله المأمون بن هرون الرشيد . كان من العلم والفضل فى المقام الأسمى ، بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ قال العبدى: ثم أفضى الأمر إلى المأمون فكان فى بدء أمره — لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره — يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها، وينقاد الى موجباتها، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأزدشير بن بابك ، واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى درسها وواظب على قراءتها: فافتن فى فهمها وبلغ درايتها ، فلما كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر، وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد (يعنى مذهب الاعتزالا) وجالس المتكلمين وقرب إليه كثيراً من الجدليين والنظارين كأبى الهذيل وأبى اسحق ابراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما. وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله . وكان أكثر الناس عفوا وأشدهم احتمالا وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم من التسفه ، واتبعه وزراؤه

يقول : كان الفراء[١] يجيئني ويشتهي أن يتعلم شيئاً من علم الكلام فلم يكن له فيه طبع . أي أن الفراء لم يكن لديه استعداد لتفهم علم الكلام

وكان الظن أن الجاحظ لم يعن بعلم الحديث ، ولم يشغل نفسه بروايته وسنده ، ولكن الواقع أن الحديث كان من العلوم التي اضطلع بشأنها ، وتصدر لاقرائها ، والظاهر أن ذلك قد كان وهو بالبصرة وقبل مغادرتها إلى بغداد ، فقد ذكر الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » أن ممن أسند عنه الحديث أبا بكر بن أبي داود[٢] . قال ابن أبي داود : كنت بالبصرة فأتيت منزل الجاحظ فاستأذنت عليه فاطلع على من خوخة فقال : من هذا ؟ فقلت : رجل من أصحاب الحديث ! فقال : ومتى عهدتني أقول بالحشوية ؟ فقلت : إبن ابن أبي داود . فقال : مرحباً بك وبأبيك . ونزل يفتح لي وقال : أدخل ، إيش تريد ؟ فقلت : حدثني بحديث ؟ فقال : أكتب . . . عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلى على طِنْفِسَةٍ . وروى الخطيب عن عبد الله بن سليمان بن الأشعث[٣] قال : دخلت على الجاحظ فقلت له:

وأصحابه في فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه . وكان مع هذا كثير الغزو والفتوح . توفي سنه ٢١٨ هـ

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي النحوي الكوفي الشهير بالفراء وهو أحد أئمة العربية الذين يحتج برواياتهم . وكان ديناً ورعاً يحب الكلام ويميل الى الاعتزال . توفي بطريق مكة سنة ٢٠٧ هـ عن ٦٧ سنة

(٢) هو الامام الحافظ الكبير أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني كان عالماً محدثاً من أكابر العلماء وأهل الحديث سمع ببغداد وخراسان وأصبهان وسجستان وشيراز ، وله عدة مؤلفات في الفقه والشريعة ونظم القرآن وغير ذلك في العلوم والآداب . توفي سنة ٣١٦ هـ

حدثنى ؟ فقال : أكتب . . . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة

فأنت ترى أن الجاحظ لم يطعن على أهل الحديث ويصفهم بالحشوية إلا عن خبرة صحيحة ومعرفة تامة بحقيقة شأنهم — إلا من عصم الله منهم — وقد كان فى غمار رجالهم . وليس معنى هذا أنه كان يصف كل محدث بالحشو ولكنه إنما كان يعنى بذلك من كان لا يفرق منهم بين الغث والسمين من صحاح الأحاديث ومعتلها ، و إلا فهذه كتبه حافلة بالكثير من الأحاديث المسندة إلى الرسول صلوات الله عليه

الفصل الثالث

فى

اساليب التعليم فى ذلك العهد ، وكيف تعلم الجاحظ

وقبل أن نعرض عليك كيف تعلم الجاحظ ، نأخذ بيدك ونقف بك على نظم التعليم فى تلك العصور وإبان ظهور الجاحظ . فقد رأينا بعد التحرى والتفقد والبحث والاستقراء أن التعليم العام كان متشابه الأعراف ، متماثل الأطراف . فقد كان الرجل يبعث بولده إلى كتاب الحي فيتعلم فيه مبادىء القراءة والكتابة ، ويشدو شيئا من قواعد النحو والصرف ، ويتناول طرفا من أصول الحساب ، ثم يستظهر كتاب الله الكريم استظهارا تاماً مجوّداً مرتلا ؛ وهو فى خلال ذلك يتردد مع أترابه على القاص فيسمع منه أحداث الفتوح ، وأنباء المعارك ، وأخبار الأبطال ، ومقاتل الفرسان ، ومفاخرات الشجعان ، وسير الغزاة والفاتحين ، ممزوجا ذلك بالمواعظ والعبر وإيراد أحوال الصالحين وأطوار الزهاد والنساك والمتقين . وبعد أن يأخذ من كل طرف من هذه المعلومات نصيبه الكافى يولى وجهه شطر حلقات الدرس بالمساجد العامة ، والمعاهد الجامعة ، والمدارس الخاصة . فيقوم من حلقة الفقيه إلى حلقة المحدث ، ومن مجلس اللغوى إلى سارية النسابة ، ومن حضرة الإخبارى إلى دارة المتكلم ، ومن معهد المنطقى إلى مجمع الفلسفى ، ومن محفل الأديب إلى قاعة المهندس ، ومن بين يدى المفسر إلى حظيرة الأصولى ، ومن غرفة الراوية إلى بيت

الشاعر ، ومن ديوان الكاتب إلى صاحب النجوم ، ومن الإسطرلابى إلى الجغرافى ، ومن مشهد الموسيقار إلى مقعد المغنى ، ومن عند الزمار إلى دكانة الوتار . الصبيان والبنات فى ذلك سواء ، وإن كانت الغالبية فى الصبيان دون أخواتهم . حتى السجون ، فقد كان لأهلها حظ من التعليم وكان لهم معلمون يدخلون إليهم فى أوقات معينة

وما دام الطالب فى طريق الطلب فقلما يُعنى له بتوجيه أو يعبأ له باعتراض مهما كان خطره فى أى درس من هذه الدروس ، او تقيد له ملاحظة أنى علا شأنها فى أحد هاتيك المجالس . إلا من طريق التندر والتفكه ، وإن سلم من التقريع فقلما يسلم من التهكم والتعجبية . وهو كلما استحكم له علم أو استوى له فن نال إجازته من شيخه ، ومتى حصل على إجازة حق له التصدر لإقراء علمها على من هم دونه من الطلاب . وكان كثير منهم لا يكتفى بما نال من الاجازات . وما حصل من الشهادات ، بل كانت تتجه به همته نحو الرحلة إلى الآفاق ولقاء الشيوخ والتعرف إلى العلماء وعقد مجالس المناظرة والمجادلة معهم ، وتبادل الإجازات فيما بينهم يشهد كل من المتناظرين فيها لقرنه بما أحكم من أبواب المعارف وفنون الآداب التى وقع النقاش فيها

على هذا النظام ، أو ما يشبهه ، تلقى الجاحظ علومه ومعارفه عن شيوخ البصرتين وعن أكابر علمائهما وصفوة أهل الفضل من رجالاتهما . وممن أخذ عنهم علومه وتلقى معارفه : أبو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بنُ المُثَنَّى ، والأصْمَعِيُّ ،[1]

---

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى الامام اللغوى الثقة الأديب المتفنن البليغ . قال الشافعى : ما عبر أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعى . قال أبو العيناء : توفى الاصمعى بالبصرة وأنا حاضر فى سنة ٢١٣ هـ وقد بلغ ثمان وثمانين سنة

وأبو زيد الأنصاري [١]، وأبو الحسن الأخفش [٢]، وكان صديقه. وتخرج في علوم الكلام ومذاهب الاعتزال على أبي إسحق النظام [٣]. ولم يكن يقتصر على مايتلقى عن شيوخه بل كان يذهب إلى مربد البصرة فيلتقى بالأعراب الواردين عليه ويتلقف الفصاحة منهم شفاها.

والمربد هذا مكان كان بظاهر البصرة تفد إليه الأعراب من بواديهم بالقفر للاتجار بالابل والماشية وتبادل السلع والعروض، كما يلتقى فيه الخطباء والشعراء والرواة والنسابون والرجاز وأرباب البلاغة من مختلف القبائل ومتباعد الأحياء، فيعرضون منتجات قرائحهم، وثمرات فهومهم، من صنوف البيان وألوان التفكير، على أسماع النقاد، وجهابذة الكلام، وصيارفة الألفاظ. فكان هذا المربد في الاسلام أشبه بسوق عكاظ وغيره من أسواق الجاهلية.

وحدث الجاحظ عن فريق كبير من الثقات وعمد السند، نخص بالذكر منهم القاضي أبا يوسف [٤] صاحب أبي حنيفة، ويزيد بن هارون [٥]،

(١) هو أبو زيد سعيد بن أوس الانصاري الامام الحجة الثقة يروى من اللغة والأدب والاخبار. والاشعار توفى سنة ٢١٥ هـ

(٢) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش المجاشعي بالولاء. من أكابر نحاة البصرة وعلمائها وكان معتزليا. قال البلخي: أصله من خوارزم. مات سنة ٢٢١ هـ

(٣) هو أبو اسحق ابراهيم بن سيار بن هانئ النظام. أحد شيوخ المعتزلة وأوحدهم في الفطنة والذكاء. وكان متكلما شاعرا أديبا بليغ اللسان حاد الذهن. ولد بالبصرة سنة ١٨٥ هـ وتوفى سنة ٢٢١ هـ

(٤) هو قاضي القضاة أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري كان في أول أمره من أهل الحديث ثم صحب أبا حنيفة وهو الذي أشهر مذهبه وقيده وحرره. تولى القضاء ببغداد زمنا ومات سنة ١٨٢ هـ في خلافة الرشيد

(٥) هو أبو خالد يزيد بن هرون مولى بني سليم. كان فقيها محدثا توفى بواسط سنة ٣٠٦ هـ

والسَّرِيّ بنَ عَبْدَوَيْهِ ، والحَجَّاجَ بنَ مُحمد بن حماد بن سلمة وغيرهم

وعن الجاحظ أخذ خلق كثير نذكر منهم المُبرِّد[1] ويموتَ بنَ المُزَرِّع ، وأبا بكر بن أبي داود السجستاني المحدث ، ومحمد بن عبد الله بن أبي الدهاب ، وغيرهم ممن يكاد يخطئهم الحصر

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الثمالى الازدى البصرى المعروف بالمبرد . كان من أئمة اللغة والادب فصيحا بليغا ثقة صاحب أخبار ونوادر وطرائف . صنف كتبا فى الأدب كثيرة ولعل أفضلها كتابه «الكامل» وهو من أمهات كتب الادب التى عليها المعول . وقد شرح هذا الكتاب النفيس معاصرنا الفاضل المرحوم الشيخ سيد بن على المرصفى أحد علماء الازهر شرحا جيدا ، وقد أبدى فيه كثيرا من النقود والملاحظات والفوائد دلت على ذوق حسن واطلاع واسع وطبعه فى عدة أجزاء ودعاه « رغبة الآمل من كتاب الكامل » وكان مولد المبرد سنة ٢١٠ هـ ووفاته سنة ٢٨٥ هـ

الفصل الرابع

فى

موارد رزقه وبسطة جاهه

يظهر من حال أبى عثمان أنه كان فى أول أمره فى ضيق من الرزق وخصاصة من العيش . فقد رُوى أنه وهو فى دور الطلب كان يعانى الاتجار فى الخبز والسمك بِسَيْحَانَ [1] . وسواء صح هذا الخبر أم لم يصح، فهو دليل على أنه نشأ معنيا بأمر نفسه . وليس فى هذا شىء من الغضاضة عليه . فلما عرف فضله ، وانتشرت مصنفاته ، وذاع ذكره فى الآفاق أقبلت عليه الدنيا، واتسعت موارد رزقه ، وعلا حظه ، ونبل جده ، وطاب عيشه ، ودرت عليه أخلاف النعم ، ودرج فى بحبوحة من اليسر والرخاء . ومن هذا الذى نورده عليك تعرف طرفا من موارد رزقه . فقد كان الفتح بن خاقان [2]

(١) سيحان هذا نهر بالبصرة اصلحه البرامكة وأطلقوا عليه هذا الاسم.

(٢) هو الفتح بن خاقان ، تركى الأصل من أبناء الملوك . مولى المتوكل. ووزيره وموضع نجواه ، بل اتخذه المتوكل أخا له وقدمه على أهله ، وكان خاصا به حظيا عنده وكانت منزلته من الخليفة فوق كل منزلة . كان كاتبا بليغا وشاعرا فصيحا وخطيبا مفوها . وكان له غرام بالكتب . ولاه المتوكل على الشام وأمره أن يستنيب عنه وكان موصوفا بالشجاعة والرئاسة والكرم والسؤدد ، وله فى الجود والوفاء والظرف أخبار حسان . وكان حاد الذكاء قوى الفطنه حاضر البديهة . قيل : دخل الخليفة المعتصم يوما على خاقان يعوده فرأى الفتح ابنه صغيرا لم يثغر فمازحه وقال : أيما أحسن دار الخليفة

وزير الخليفة المتوكل على الله العباسي [1] وصاحب تدبيره ، يعرف للجاحظ حقه ومنزلته ويقدر مكانته وينزله فى الكرامة بالمقام اللائق به .

كتب هذا الوزير من دار الخلافة ببغداد إلى الجاحظ يقول :

« إن أمير المؤمنين يَجِدُ بك . ويهش عند ذكرك . ولولا عظمتك

أم داركم ؟ فقال الفتح : دارنا أحسن إذا كان أمير المؤمنين فيها . فقال المعتصم : والله لا أبرح حتى أنثر عليه مائة ألف درهم . وكان له خزانة كتب جمعها له على بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسنا . وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة وزعم بعضهم أنه مع ما كان له من هذه المكانة والمنزلة لم يكن يرجى فضله ولا يخاف شره . ومن شعره قوله :

لست منى ولست منك فدعنى وامض عنى مصاحبا بسلام
وإذا ما شكوت ما بى قالت قد رأينا خلاف ذا فى المنام
لم تجد علة تجنى بها الذنب فصارت تعتل بالأحلام

وقوله :

وإنى وإياها لكالخمر والفتى متى يستطع منها الزيادة يزدد
إذا ازددت منها ازددت وجدا بقربها فكيف احتراسى من هوى يتجدد

وقوله :

أيها العاشق المعذب صبراً لخطايا أخى الهوى مغفورة
زفرة فى الهوى أحط لذنب من غزاة وحجة مبرورة

وله من المصنفات كتاب « البستان » وكتاب « الصيد والجوارح »

قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ

(١) هو الخليفة جعفر بن المعتصم بن هرون الرشيد . المتوكل على الله العباسى . بويع له بالخلافة يوم توفى الواثق سنة ٢٣٢ وأمه أمة يقال لها شجاع . وكان صاحب لهو وشراب وهو أول من جرؤ الاتراك على قتله بتحريض ولده المنتصر ، وكان ذلك أول ما أدخل الوهن على الخلافة العباسية . قتله باغر التركى سنة ٢٤٧ هـ

فى نفسه لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك و بين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه . ولقد كان ألقى إلى من هذا عنوانه ، فزدتك فى نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك . فاعرف لى هذه الحال ، واعتقد هذه المنية على كتاب « الرد على النصارى » وافرغ منه ، وعجل به إلى ، وكن ممن جدا به على نفسه ، وتنال مشاهرتك . قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مالم تحلم به نفسك . وقد قرأت رسالتك فى « بصيرة غنام » ولولا أنى أزيد فى مخيلتك لمعرفتك مايعتريني عند قراءتها والسلام »

فأنت ترى من فحوى هـذا الخطاب أن الجاحظ كانت له وظائف مالية يتقاضاها من دار الخلافة شهريا ، وذلك فضلا عن المنح والعطايا والإدرارات التى كانت تنهال عليه منها لمناسبات . وما كان يتقرب به إليه وزراء الدولة وأصحاب السلطان فيها كالبرامكة (١) والطاهرية (٢) والفتح ابن خاقان وابراهيم ابن العباس الصولى (٣) ومحمد بن عبد الملك

(١) البرامكة هم أبناء خالد بن برمك . وهم سلالة بعض عظماء الفرس . وكان يضرب بهم المثل فى الفضل والجود والسخاء والكرم والشهامة ومحاسن الشيم وقد أبادهم الرشيد فى خبر طويل . وأمرهم معروف

(٢) الطاهرية فى أبناء طاهر بن الحسين القائد الشهير الذى وطد دعائم دولة المأمون وأزال دولة الامين . هم قادة سراة نبلاء أجواد تولى منهم مصر عبد الله بن طاهر . وخبرهم مشهور

(٣) هو أبو اسحق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين الصولى أصل جده صول تركى تمجس واتخذ شعار الفرس وكان ملكا على جرجان وأسلم على يد زيد بن المهلب وقاتل بين يديه حتى قتل معه يوم العقر . وكان ابراهيم كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا . قال المسعودى لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من

الزيات[1] وأحمد بن أبي دؤاد[2] وأمثالهم من ذوى الكلمة المسموعة والإرادة المطاعة . سأل ميمونُ بنُ هرونَ[3] الجاحظَ — ورأى ما هوفيه من النعمة السابغة والجاه العريض — : أنك ضيعة بالبصرة؟ فتبسم الجاحظ وقال:

إنما أنا ، وجارية لى ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار ؛ أهديت كتاب « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب « البيان والتبيين » إلى احمد بن أبى دؤاد فأعطانى خمسة

الكتاب أشعر منه . وقال دعبل بن على الخزاعى الشاعر: لو تكسب ابراهيم ابن العباس بالشعر لتركنا فى غير شئ . تقلب فى أعمال السلطان وتنقل فى الدواوين وتوفى وهو يلى ديوان الضياع والنفقات سنة ٢٤٣ هـ بسر من رآى

(١) هو محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب البليغ . تولى الوزارة للمعتصم والواثق . فلما ولى الخلافة المتوكل كان واجدا عليه فقتله . على ما قيل . فى تنوره الشهير . وكان الجاحظ يميل اليه ويؤثره بوده وإخلاصه . توفى سنة ٢٣٣ هـ

(٢) هو القاضى النسرى العظيم أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الأيادى صاحب السطوة والجاه والنفوذ فى دولة المعتصم والواثق . كان بعيد الهمة واسع المروءة مهيب الجانب مقيل العثرات . وكان الخليفة المعتصم لا يرد له طلبا كائنا ما كان . ولم يكن يطلب شيئا قط لنفسه وإنما كانت همته مصروفة إلى قضاء مصالح الناس والسعى فى خيرهم والعمل على انقاذهم من ورطات الحياة والترفية عنهم وحفظ ماء وجوههم وحقن دمائهم . وله فى أعمال البر وإسداء المعروف أياد لم يلحق شأوه فيها غيره . وله فى ذلك حوادث وأخبار هى منتهى عجب العاجب . وكان المعتصم يقول فيه : هذا والله الذى يتزين بمثله ، ويبتهج بقربه . ويعد به ألوف من جنسه . توفى بالفالج سنة ٢٤٠ هـ

(٣) هو ميمون بن هرون : الكاتب الأخبارى الراوية

آلاف دينار ، وأهديت كتاب « الزرع والنخل » إلى ابراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار . فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لاتحتاج إلى تجديد ولا تسميد !

وإذا كانت هذه هى حال الجاحظ وهذا مبلغ حظه من أبناء زمنه ، فلا عجب إذا تمكن من أن يملأ طباق الأرض علما ، وأن يعلو على أمثاله فضلا وفهما ، وأن يقدم للغة العربية هذه المصنفات التى وضعها فى كل ضرب من ضروب العلوم وفن من فنون الآداب ، على كثرتها وجليل شأنها ، فإن العطايا والأُهى تفتح اللَّها ! على شريطة الاستعداد الفطرى والكفاية الظاهرة

ودخل عليه بعض إخوانه فقال له : كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً : حالى أن الوزير يتكلم برأيى وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفةُ الصِّلاتَ إلىَّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكىء على هذا الريش ، ثم أسير على هذا حتى يأتى الله بالفرج ؟ فقال الرجل : الفرج ماأنت فيه ! فقال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج !

بهذه العبارة قد وصف الجاحظ حاله و بسطة جاهه . وما ذكره للخلافة إلا أمنية من أمانى النفس التى لاحد لها فى مطامعها . ولعله وهو يقول هذا قد أبدى لسائله إشارة أخرج بها الكلمة مخرج المزاح ، و إلا فمثل هذه العبارة متى خرجت مخرج الجد كانت غير مأمونة العاقبة . والجاحظ أعقل من أن يعرض نفسه للمعاطب ، وهو يعلم أن الملك عقيم

الفصل الخامس

في

رآسته لديوان الرسائل

كان ديوان الرسائل فى الممالك الإسلامية من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة. وكان لايعهد فيه إلا لذوى الشرف والنباهة من الثقات الكُفاة ، وكان لايليه إلا الحذاق الضاربون بالسهام الوافرة فى مختلف العلوم والآداب ، وإلا أصحاب السياسة والتدبير ، والكياسة والتقدير ، على أن يكون القائم باعبائه متفوقا فى صنوف البلاغات وضروب الإبانات . وقد كان ابراهيم بن العباس الصولى ممن يتوبون فيه حتى أوائل عهد المأمون ، وكان الجاحظ يخلفه فيه إذا تغيب فى شأن من الشؤون الخاصة أو العامة . ثم أصدر المأمون أمره باسناده الى الجاحظ . فصدع بالأمر على كره منه . ويظهر أن توليه هذا الديوان واقتعاده هذا المنصب الخطير ، أثار عليه حفائظ الكتاب ، فأخذوا فى دس الدسائس ضده وبث الوشايات به . ولهذا بادر الجاحظ بعد ثلاثة أيام من توليه إلى الاستعفاء معتذرا للخليفة بما فتح الله عليه من الأعذار ، فأعفاه . وكان سهل ابن هرون[1] يقول : إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب ...

---

(١) هو أبو عمرو سهل بن هارون بن راهبون . أصله من دستميسان من بلاد فارس . انتقل الى البصرة ولقى علماءها وأفاد منهم علما وأدبا ، ثم اتصل بالمأمون فحظى عنده وتولى له « خزانة الحكمة » وهى دار الكتب . وكان كاتبا بليغا جمع بين الحكمة والأدب . وله شعر جيد . وكان شعوبى المذهب شديد العصبية على العرب ، وكان نهاية فى البخل ، وله فيه حكايات ونوادر

فهل كان الجاحظ من أحرار الكتاب الذين وقفوا أقلامهم على وحى

قال دعبل بن على الخزاعى : كنا عنده يوما فأطلنا القعود حتى كاد يموت جوعا ثم قال لغلامه : ويحك غدنا ! فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ فتأملها ثم قال:أين الرأس ؟ قال:رميت به . فقال : والله إنى لأمقت من يرمى برجليه فكيف برأسه ؟ ولو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفأل لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصدح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه الفرق الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلية . ولم تر عظما أهش تحت الأسنان منه ؟ وهل ظننت أنى لا آكله ؟ إن العيال يأكلونه ! وإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله فعندنا من يأكله ، أوما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق ؟ أنظر أين هو ؟ فقال : والله يا سيدى ما أدرى أين هو ولا أين رميت به ؟ فقال : أنا أدرى أين رميت به ! رميت به فى بطنك قاتلك الله . وكتب رسالة فى البخل وبالغ فى مدحه وبعث بها إلى الحسن بن سهل وزير المأمون واستماحه عليها فوقع الحسن على ظهرها بقوله: وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك . وقد مدحت ما ذم الله وحسنت ما قبح ، ومايقوم فساد معناك بصلاح لفظك ، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول قولك والتصديق لك ، فما نعطيك عليها شيئا والسلام . ومن شعره قوله :

تقاسمنى همان قد كسفا بالى ... وقد تركا قلبى محلة بلبال
هما أذريا دمعى ولم تذر عبرتى ... ربيبة خدر ذات قرط وخلخال
ولا قهوة لم يبق منها على المدى ... سوى أن تحاكى النور فى رأس ذبال
ولكننى أبكى بعين سخينة ... على حدث تبكى له عين أمثالى
فراق خليل مثله يبعث الأسى ... وخلة خل لا يقوم لها مالى
فوا أسفا حتى متى القلب موجع ... بفقد خليل أو تعذر إفضال
فما العيش إلى أن تجود بنائل ... وإلا لقاء الاخ ذا الخلق العالى

وله كتب كثيرة وفوائد جمة تدل على فضل كثير وحكمة بالغة . مات فى عهد المأمون

إرادتهم ، فلا يرون الوقوع تحت نير الأعمال السلطانية ، ولا يحبون أن يجعلوا أقلامهم وفق إرادات ذوى السلطان من الخلفاء والملوك والوزراء وأرباب الدولة ؟ أم كان من الذين يرون فى هذه الوظائف وسائل الرفعة الواسعة والجاه العريض ؟ الظاهر أن ميله إلى التحرر من ربقة النظم الديوانية كان أغلب عليه من الوقوع تحت طوائلها . وفى الحقيقة أن الجاحظ كان طلق عنان العقل حاد شبا القلم . وكان أشبه الناس بكتاب الصحف هذا العهد ، ومن أعلى طبقة فى هذا النوع . وقد بلغ به الأمر فى تحقير الوظائف والموظفين أن دخل يوما ديوان الكاتبات فرأى قوما قد صقلوا ثيابهم ، وصففوا عمائهم ، وَوَشَّوْا طُرُزَهم ، فقال : هؤلاء كما قال الله تعالى : « فأما الزَّبَدُ فيَذْهَبُ جُفاء » ظواهر نظيفة ، وبواطن سخيفة « فوَيْلٌ لَهمْ مما كَتَبَتْ أيدِيهمْ وَوَيْلٌ لهمْ مما يَكْسِبُون »

على أن الجاحظ لم يترك قولة سهل بن هرون تمر بلا جزاء ، ولم يتسامح معه فيها . ولعل لسهل يدا فى استثارة حميته وخروجه من الديوان . فقد جعل الجاحظ من سهل بن هرون المثل المضروب فى البخل والبخلاء ، لأن سهلا وضع رسالة بليغة فى مدح البخل وذم الكرم جعلت اسمه شنعة فى سائر الأجيال . وما مدح البخل إلا لئيم ، ولا ذم الكرم إلا زنيم . ومن أطرف ما حصل من الجاحظ وهو يتولى ديوان الرسائل نيابة عن الصولى أن أبا العيناء[1]

---

(١) هو أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر اليمامى مولى المنصور عرف بأبى العيناء لكبر حدقتيه مع حول وضعف بصر . كان شاعرا مجيدا وكاتبا بليغا . حاضر الجواب قوى البديهة ، فصيح اللسان ، محتشى الجانب لفضل لسانه . ولما بلغ الأربعين كف بصره . وروى عنه أنه قال : أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك وأدخلناه على الشيوخ ببغداد فقبلوه الا ابن شبة

جاءه فى أمر فلما أراد الانصراف أسر الجاحظ إلى حاجبه أنه إذا وصل إلى الدهليز لا يدعه يخرج ولا يمكنه من الرجوع إليه . فلما خرج أبو العيناء من بين يديه وصار فى الدهليز حجزه الحاجب وضيق عليه . فنادى بأعلى صوته : يا أبا عثمان ، قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك؟

ولم يكن ذلك من الجاحظ إلا دعابة ، مع صديقه أبى العيناء صاحب النوادر والملح والفكاهات

العلوى فانه قال : لا يشبه آخر هذا الحديث أوله . وله نوادر وأخبار وطرائف غاية فى الابداع والطيب . ولد بالاهواز سنة ١٩١ هـ وتوفى سنة ٢٨٢ هـ

الفصل السادس

في

معارفه واحاطته

أتقن الجاحظ علوماً كثيرة ، وتعرف ألواناً من المعارف شتى ، وقرأ كتب الأوائل من فلاسفة اليونان ، وحكماء الهند ، وعلماء الفرس ، وأدباء الرومان ، ونظر فى ثمرات قرائحهم ومنتجات أذهانهم ، حتى لم ينقل كتاب إلى اللغة العربية فى أى علم وفى أى فن إلا قرأه واستظهره وتمثله. قال أبو هفّان[1]: لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين (باعة الكتب) يبيت فيها للنظر . . . . وكان كثير الحفظ واسع الرواية قوى الحجة ناصع البرهان . وأقرب ما يوصف به أنه كان دائرة معارف أحاطت بمعلومات أهل دهره .

ويؤخذ من مجمل حاله أنه كان يجيد اللغة الفارسية . فإن متصفح رسالته « التربيع والتدوير » وكتاب « الحيوان » و « البيان والتبيين » وغيرها من مصنفاته لايسعه إلا الخروج منها ممتلىء النفس بإحسان الجاحظ لهذه اللغة . أجل ليس هناك نص صريح يملأ يد الباحث فى هذا الشأن

(١) هو عبد الله بن احمد بن حرب أبو هفان المهزمى البصرى . كان نحويا أديبا راوية صاحب أخبار . وكان ضيق الحال مقتراً عليه فى الرزق كثير التبرم بالعيش

ولكن هناك من العبارات والألفاظ ما يدفع إلى استنباط هذا الرأى ومن أقرب الشواهد على ذلك قول الجاحظ :

« واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسوارى ، وكان من أعاجيب الدنيا . كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية . فلا يدرى بأى لسان هو أبين »

هذا شاهد غير أنه على ما أرى ليس بكاف ، لأن قوله « إلا ماذكروا » جعله رواية منقولة عن قائلين ، وأنه لم يشهد مجالس الاسوارى ، ولكنه حدث بها فتحدث عنها . وليس معنى تعلمه للغة الفرس هو الذى جعله أديباً مستكمل الآلة كما يريد أن يذهب اليه بعض معاصرينا ممن يبغضون اللغة العربية لجهلهم بها . فاللغة العربية وحدها كافية لتخريج أديب تام الآلة مستكمل الأدوات كالجاحظ وأضرابه

على أننى مهما تعزز النص على معرفة الجاحظ للغة الفرس ، ما أزال أحس وأشعر بأنه كان يعرفها . إذاً : فمسألة عرفان الجاحظ باللغة الفارسية تُستنبط بالقوة من خلال السطور فى كتبه ، ولا تؤخذ بالنص

ومما يدل على سعة معارفه وإحاطته ما قاله أبو بكر أحمد بن على [1] فيما روى عنه أنه قال :

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن على بن أبجور بن الاخشيد . كان والده أحد كبار القواد من الفراغنة ولى الثغور للمعتضد والمكتفى . قال ابن حزم : وكان أبو بكر هذا أحد رؤساء المعتزلة الثلاثة الذين انتهت إليهم الرئاسة ـــ

كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام . وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به و بغيره من علوم الدين والدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وفى حكاية المخالفين ، و [فى] الآداب والأخلاق ، وفى ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها . وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول ، وشحذ الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، و إيصال خلاف الاسلام ومذاهب الاعتزال الى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال و يميزون الأمور

أظن أنه ليس بعد هذا فى هذا الباب كلام

وافترقت المعتزلة على مذاهبهم ، والثانى أبو هاشم الجبائى ، والثالث عبدالله ابن محمد بن محمود البلخى المعروف بالكعبى وقال ابن النديم : ابن الاخشاد من أفاضل المعتزلة وصلحائهم وزهادهم، وكانت له ضيعة منها مادته وكان ينفق أكثر ما يحمل إليه منها إلى العلم وأهله . وكان فصيحا بينا طلق اللسان قيما بالعربية والفقه وسائر العلوم . وله عدة كتب ، توفى سنة ٣٢٦ هـ

الفصل السابع

فى

وضعه الكتب على ألسنة المتقدمين

ووضع غيره الكتب باسمه

لم يكن الجاحظ فى طالعة أمره ومستهل نشأته سعيد الجد ، ولا نبيل الحظ ، بل قد أصابه من الخمول ، وعدم التقدير ما يصيب أكثر المشتغلين بصناعة القلم فى كل عصر ، وفى كل مصر ؛ حتى يومنا هذا . ويظهر أن تقديس آثار الماضين ، واعتبار أعمال الغابرين ، فكرة عريقة فى القدم لها فى النفوس سلطان ؛ وفى الصدور تمكين وإمكان ، ولها فى المخيلة منزلة قد لا تزاحمها عليها منزلة أخرى . فقد روى المسعودى[1] فى كتابه « التنبيه والإشراف » أن الجاحظ على جلالة قدره كان يقول :

كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسى فلا أرى الأسماع تصغى إليه ، ولا الإرادات تتيمم نحوه ، ثم أؤلف

---

(١) هو أبو الحسين على بن الحسين بن على المسعودى المؤرخ المشهور ينتهى نسبه إلى عبد الله بن مسعود الصحابى الجليل. وكان من أفاضل المؤرخين علامة إخباريا ذا نوادر وملح وغرائب وتحف . وكتابه مروج الذهب من أجل كتب التاريخ وأمتعها . وله غيره كتب كثيرة ، ومنها كتاب التنبيه والاشراف . وهو بغدادى الأصل رحل إلى الآفاق ثم أقام بمصر مدة ومات سنة ٣٤٦ هـ

ماهو أنقص منه رتبه ، وأقل فائدة ، وأنحله عبد الله بن المقفع[1] ، أو سهل ابن هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشيء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى عنى بتشييدها

وهذا قول صريح فى أن الجاحظ ألف كتبا ونسبها إلى طائفة من الكتاب والمصنفين ومن بينهم ابن المقفع وسهل بن هرون . ومن الغريب أن يمر على هذا الإعتراف الصريح أحد عشر قرنا ولم يقم من كتاب العربية باحث واحد ينظر فى كتب ابن المقفع ويضع مقارنة بين أسلوبها وأسلوب الجاحظ يبين بها ماقد يكون لغيره منها . ولعل المانع من ذلك قلة مافى اليد من آثار ابن

---

(١) هو عبد الله بن المقفع . قال الجاحظ : «ومن المعلمين ثم من البلغاء والمتأدبين عبد الله بن المقفع ، ويكنى أبا عمرو ، وكان يتولى لآل الأهتم وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير وكان جوادا فارسا جميلا ، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله ، وكان يتعاطى الكلام ولم يكن يحسن منه لاقليلا ولا كثيراً ، وكان ضابطا لحكايات المقالات ولا يعرف من أين غر المغتر، ووثق الواثق ، وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خلص المتكلمين ومن النظارين ، فاعتبر ذلك بأن تنظر فى آخر رسالته الهاشميه . فانك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم . ردىء المدخل فى مواضع الطعن عليهم. وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا بعد به فيه» . وقال ابن النديم : اسمه بالفارسية روزبه . وكان يكنى قبل إسلامه أبا عمرو فلما أسلم اكتنى بأبى محمد . وكان يكتب أولا لداود بن عمر بن هبيرة ثم كتب لعيسى بن على . ولد سنة ١٠٦ هـ وقتل سنة ١٤٢ هـ

القنع التى قد يكون ذهب بجمهورها عادى الدهر كما ذهب بأكثر كتب الجاحظ وبجملة كتب سهل بن هرون

وكما حمل الجاحظ على غيره من الأدباء كتبا ليست لهم ، كذلك حمل عليه الأدباء والمصنفون من بعده الشيء الكثير منها ، ولا يزال ينسب إليه مالبس له منها إلى الآن. فقد نسب إليه منها قديما : كتاب « الابل » وكتاب « الهدايا » ذكر ذلك ياقوت فى معجمه . كما نسب اليه كتاب « تنبيه الملوك والمكايد » أشار الى ذلك أحمد زكى باشا .

ونسبوا إليه كتاب « المحاسن والاضداد » ونسب إليه أحمد زكى باشا كتاب « التاج » كما نسب إليه الفاضل راغب الطباخ كتابا إسمه « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » وطبع هذا الكتاب أخيرا فى حلب . وليس فى أسلوبه ما يدل على أنه للجاحظ أو من بابته

الفصل الثامن
فى
مقامه فى رأى خصومه

للجاحظ ، كما لغيره من نوادر الرجال ، خصوم ينقبون عن مثالبه و يذيعونها فى الناس ، كما له أنصار يعرفون مناقبه و يبشرون بها و ينشرونها بين الملأ ، وكلا الخصوم والأنصار لا يفترون عن الهجوم والدفاع وعن المجادلة فيه والمجالدة له . شأن كل عظيم له فى الحياة العامة أثر ظاهر وعمل باهر ، وقد رأينا أن نلم فى هذا الفصل بما ثلبه به خصومه ، وبما رماه به أعداؤه ، أو وصفه به أنداده وقرناؤه ، لنعرف وزن ما رموه به من المآخذ والمثالب ، حتى يمكن زنتها بما عرف له من مناقب . وأول ما نبدأ به مطاعن ابن قتيبة [1] فيه على ما جاء فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » قال :

ثم نصير الى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى . كاتب اديب كثير التصانيف ذا معرفة باللغة والأخبار وأيام الناس . ولى قضاء الدينور قال عنه البيهقى إنه كان كراميا . وقال الدارقطنى إنه كان يميل إلى التشبيه . قلت هذا صحيح ترى هذا ماثلا فى كتابه تأويل مختلف الحديث . وقال الحاكم أجمعت الأمة على أنه كذاب . وحسن الظن فيه بعضهم فنفى عنه ذلك . وله كتب جيدة فى بابها نافعة فى فنونها ولد سنة ٢١٣ هـ وتوفى بأكلة هريسة حارة سنة ٢٧٦ هـ

حتى يصغر، و يبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه ، و يحتج لفضل السودان على البيضان ، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل علياً رضي الله عنه، ومرة يؤخره . و يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و يتبعه قال الجماز [1] ، وقال اسماعيل بن غزوان :

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمرو الجماز وهو ابن اخت سلم بن عمرو الشاعر المعروف بالخاسر . ولما كانت ترجمة الجماز غير معروفة فقد جهدت في جمعها وتأليفها من شتى الكتب ، ولم أحصل منها على هذا القدر إلا بعد عناء كثير ، ولهذا آثرت إثباتها ههنا . زعموا أن أمه كانت نائحة ، وكان هو شاعراً هجاء خبيث اللسان داهيا منكراً ، وله نوادر وطرائف وملح . وله حوادث واهاج مع عبد الصمد بن المعذل وأبي العتاهية والجاحظ وغيرهم من معاصريه . قال عبد الصمد بن المعذل : هجاني الجماز ببيتين سخيفين فسارا في أفواه الناس حتى لم يبق خاص ولا عام إلا رواهما وهما قوله :

إبن المعذل من هو ومن أبوه المعذل
سألت وهبان عنه فقال بيض محول

وكان وهبان هذا رجل يبيع الحمام فجمع قوماً من أصحابه وجيرانه وجعل يغشى المجالس ويحلف للناس أنه ما قال إن عبد الصمد بيض محول ، ويسألهم أن يعتذروا إليه . وكان هذا منه قد صار بالبصرة طرفة ونادرة قال أبو شراعة : فجاءني عبد الصمد يستفيث منه ويقول أنقذني من الجماز فقلت له : أمثلك يفرق من الجماز ؟ فقال : نعم لأنه لا يبالي بالهجاء ولا يفرق منه ولا عرض له ، وشعره ينفق على من لا يدري وآفتي منه عظيمة . والله لدوران وهبان على الناس يحلف لهم أنه ما قال أني بيض محول أشد علي من هجائه لي ! فأصلحت بينه وبين الجماز ثم أرسلت إلى وهبان فأحضرته وقلت له : ياهذا قد علمنا أن الجماز قد كذب عليك وعذرناك فحسب أن لا تتكلف العذر إلى الناس في أمرنا فانا قد عذرناك . فانصرف وقد لقي عبد الصمد منه بلاء . قال عبد الصمد : وقلت أنا في الجماز شعرا تركته يتحاجى فيه كل أحد

كذا وكذا من الفواحش . ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن

غير أن الناس لم تروه لضعة الجماز ، وهو قوله :

نسب الجماز مقصو ر اليه منتهاه
يترا آى نسب النا س فما يخفى سواه
يتحاجى من أبو الجا ز من هو ثانياه
ليس يدرى من أبو الجا ز إلا من رآه

قلت : وهذه الابيات يرويها يموت بن المزرع للجاحظ فى الجماز ، وهى بعيد الصمد أشبه وهو بها أحق . وكتب الجماز إلى صديق له يستميحه ، فاعتذر إليه ، فاجابه : « إن كنت كاذبا فجعلك الله صادقا ، وإن كنت ملوما فجعلك الله معذورا » . وكان أبو العتاهية ينشد قثم بن جعفر بن سليمان شعرا والجماز حاضر فأنشأ الجماز يقول :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسود

فالتفت أبو العتاهية وقال : من هذا ؟ قالوا : الجماز ، وهو ابن أخت سلم الخاسر ، اقتص لخاله منك . فأقبل عليه وقال : يا ابن أخى ، إنى لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ولا أردت أن أهتف به ، وإنما خاطبته كما يخاطب الصديق صديقه ، فالله يغفر لكما . وقد أراد أبو العتاهية بقوله أنه لم يرد أن يهتف بخاله أن قوله فى سلم الخاسر :

تعالى الله ياسلم ابن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

لم يكن من طريق التشيع عليه أو المواخذة له . وقال الجماز : شممت من دار فلان رائحة قدر أطيب من رائحة العروس الحسناء فى أنف العاشق الشبق . وقال : ثلاث من الطيبات : الوطء فى الحمام ، والبول فى الطشت ، وصفع الاصلع . وكان يتعشق جارية لآل جعفر يقال لها طغيان ، وكان لها خصى يحفظها أنى سارت ، وكان الخصى أشد عشقا لها من الجماز ، فحال بينه وبين كلامها

يذكر فى كتاب ذكرا فيه ، فكيف فى ورقة أو بعد سطر وسطرين؟ ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فاذا صار إلى الرد عليهم تجوّز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على مالا يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين . وتجده يقصد فى كتبه المضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ . ويستهزىء من الحديث استهزاء لايخفى على أهل العلم ، كذكره « كبد الحوت » و « قرن الشيطان » وذكر « الحجر الأسود » وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وكان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ويذكر « الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع » تحت سرير عائشة (١) فأكلتها الشاة .

وأشياء من أحاديث أهل الكتاب فى « تنادم الديك والغراب » و « دفن الهدهد أمه فى رأسه » و « تسبيح الضفدع » و « طوق الحمامة » وأشباه هذا ، وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل

وقبل أن نعرض للبحث فيما ذهب اليه ابن قتيبة من ثلب الجاحظ ورميه بما رماه به نبسط هنا المسائل التى جعلها أساسا للطعن فيه :

والدنو منها ، فقال الجاز فيه أبياتا منها قوله :

ما للقيت سنان وللظباء الملاح
ليس خصى بزان غاز بغير سلاح؟

وله غير هذا شعر كثير لانرى إثباته ههنا . ولم أقف على تاريخ وفاة الجاز ولعله كان فى الثلث الاخير من القرن الثالث

(١) هى أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق ، زوج النبى صلى الله عليه وسلم وقد بسطت ترجمتها بكتاب الاصابة فلا حاجة لتعريف المعرف . توفيت سنة ٥٨ هـ

فأما إشارته الى « كبد الحوت » فقد يروى فى بعض الآثار أن أول طعام يقدم لأهل الجنة فى الجنة هو كبد الحوت الذى يزعمون أنه حامل الثور الحامل للأرض على قرنه

وأما إشارته إلى « قرن الشيطان » فهو زعمهم أن الشمس تطلع من بين قرنى شيطان ، ويروون حديثاً ينهى عن الصلاة عند طلوعها تأييداً لهذا الزعم

وأما إشارته إلى « الحجر الأسود » فقد رووا عن ابن عباس[1] أنه قال : الحجر الأسود من الجنة ، وأنه كان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك !!.. مع أن ابن الحنفية[2] كان يقول : إن الحجر الأسود من بعض هذه الأودية . وكان الجاحظ يقتدر على ما تقولوه على ابن عباس ويقول : إن كان المشركون قد سودوه فقد كان يجب على المسلمين حين أسلموا أن يبيضوه ؟ ! ! . .

وأما إشارته إلى « صحيفة الرضاع » فقد أسندوا كلاماً إلى عائشة تقول فيه : لقد نزلت آية الرجم ورضاع الكبير عشرا فكانت فى صحيفة تحت سريرى عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توفى وشغلنا به دخلت داجن الحى فأكلت تلك الصحيفة ؟ ! ! . . ومن طرائف ما يروى أن

(١) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . حبر الأمة وإمام علمائها وسيد رواتها ومحدثيها . ولد فى الشعب أيام أن حاصرت قريش النبى وبنى هاشم فيه . وتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ

(٢) هو أبو القاسم محمد بن على بن أبى طالب . كان يعرف بابن الحنفية وهى أمه . وكان شجاعا باسلا ، شهد مع أبيه مشاهده . وتوفى بالطائف سنة ٨١ هـ

الأحناف يؤيدون الجاحظ فى استنكار هذا الحديث ويتندرون بالشافعية الذين يعتدون به . ففى كتاب « الجواهر المضية » يرى أبوحنيفة أن التحريم بالرضاع يتعلق بالقليل والكثير ، ويرى الشافعى تعلق التحريم بخمس رضعات . ودليل أبى حنيفة قول النبى صلى الله عليه وسلم : الرضاعة من المجاعة . يعنى ما سد الجوعة . ودليل الشافعية ما هو ؟ يقول الأحناف : كان للشافعية دليل فأكلته الشاة . . . !

ومن الغريب أن الجاحظ ، بل والمعتزلة جميعاً ، يدفعون هذا السخف ويبطلون هذا الهراء ويقيمون على زيف ذلك الحجة التى لا تدفع ، والبرهان الذى لا يرد ، ويرون هذا الخبر مخالفاً لقوله تعالى « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ » فكيف يكون عزيزاً وقد أكلته شاة وأبطلت فرضه وأسقطت حجته ؟ وأى أحد يعجز عن إبطاله والشاة تبطله ؟ وكيف قال « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » وقد أرسل عليه ما يأكله ؟ وكيف عرض الوحى لأكل شاة ولم يأمر بإحرازه وصونه ؟ ولم أنزله وهو لا يريد العمل به ؟ !! لكن ابن قتيبة يدفعه حقده على المعتزلة إلى أن يذهب فى تصحيح هذا الخبر الكاذب كل مذهب . وهذا من أغرب ما يروى فى باب التعصب للرأى والحقد على الخصم

وأما إشارته إلى « تنادم الديك والغراب » فقد كان الأعراب فى الجاهلية يزعمون أن الغراب فى ماضى الدهر كان يتألف الديك ، وكان ينادمه ، فاختدع الغراب الديك وتلعب به ورهنه عند الحمار وتركه حتى أغلق عنده ، وتخلص من الغرم الذى لحق الديك وفاز هو بالغنم . فضرب به المثل حتى قال أمية بن أبى الصلت [1] :

(١) هو أمية بن أبى الصلت ، أحد شعراء ثقيف وفصحاء العرب ، وكان

بِآيَةٍ قَامَ يَنْطِقُ كلُّ شَيْءٍ وَخَانَ أَمَانَةَ الدِّيكِ الْغُرَابُ

وأما إشارته إلى «دفن الهُدهد أمه فى رأسه» فقد زعم أصحاب الأساطير أن الهدهد نتن الريح ، وأن هذا النتن إنما عراه لما دفن أمه فى رأسه حين ماتت ، وأن القُنْزُعَةَ التى فى رأسه إنما هى ثوابه على بره بأمه . ولأمية بن أبى الصلت فى هذا الخبر شعر معروف .

وأما إشارته إلى « تسبيح الضفدع » فقد زعموا أن نقيقها هذا الذى نسمعه حينما تكون فى الماء إنما هو تسبيح. وقد أوردوا على ذلك بعض الآثار

وأما إشارته الى « طوق الحمامة » فقد زعموا أن نوحا لما بعث الحمامة لاستكشاف الأرض ولتنظر هل ترى موضعا منها يصلح مرفأ للسفينة ، فعادت إليه وفى فمها غصن من الزيتون ، فرشاها نوح بهذا الطوق الذى لايزال فى عنقها . وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت :

وَأُرْسِلَتِ الْحَمَامَةُ بَعْدَ سَبْعٍ تَدُلُّ عَلَى الْمَهَالِكِ لا تَهَابُ
فَجَاءَتْ بَعْدَمَا رَكَضَتْ بِغُصْنٍ عَلَيْهَا الشَّاهُ وَالطِّينُ الْكَبَابُ
فَلَمَّا فَرَّسوا الآيات صاغوا لها طَوْقًا كما عُقِدَ السِّخَابُ

هذه هى المسائل التى أشار اليها ابن قتيبة واتخذها وسيلة للطعن فى الجاحظ ، والنيل من عقيدته ، والحط من شأنه . وليس للجاحظ من ذنب عنده إلا أنه أوردها فى بعض كتبه ساخرا منها ، منددا بمن رواها ، مستخفا بسندها . وابن قتيبة من الحشوية الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن كل ما يروى عن أهل الحديث ، والذياد عن كل مايسند إليهم من الخرافات

يتأله فى شعره . قرأ الكتب القديمة وعرف أن نبيا سيبعث فى العرب . فكان يرى نفسه حقيقاً بأن يكونه . فلما بعث النبي حسده وأعان عليه خصومه من قريش . وله مراث فى قتلاهم . مات على غير إيمان سنة ٢ هـ

والأساطير التى لايقرها عقل رجيح ، ولا يسندها نقل صحيح ، وما هى إلا من أسمار الرواة وأحاديث القصاص

ومن أعجب العجب أنى رأيت بعض الأئمة قد خدعوا بابن قتيبة وأنزلوه من المحدثين فى منزلة الجاحظ من المتكلمين؟وشتان بين من يستعمل ماوهبه الله من عقل ، وبين من يعطل هذه المنة الكبرى مستسلما لعواصف الآراء ، ونوازع الأهواء . ولعل الامام ابن تيمية [1] لم يصل إلى علمه هذا السخف الذى جاء به ابن قتيبة ، ونظر اليه من جهة رآه فيها صالحا فوصفه بما وصفه به .

أما ماتنقص به ابن قتيبة أبا عثمان الجاحظ من أنه كان يعمل الشيء ونقيضه ، فلا أدرى كيف غاب عنه أن هذا من قوة البيان ، وفضل الافتنان ؟ وكيف فاته أن ذلك من معجزات البلاغة التى اختص الله الجاحظ بهـا ، وألقى إليه بأزمتها ؟ وهل فى الوجود شيء خالص من الشوائب ، أو بريء من المعايب ؟ أم هل هناك خير محض أو شر بحت ؟ الحق أنه لا يوجد فى هذا العالم ماليس فيـه وجه للمدح وآخر للقدح . وقد أعطى الجاحظ أكبر قسط من فضل اللسن حتى إنه ما كان يروم وصف شيء كائنا ما كان إلا جلاه عليك فى صورة يعجز غيره من فحول البلاغة وأعيان البيان عن عرضه فى مثلها

ومن المعروف عند أهل الكلام أن المحدث كلما كان أموق كان عند

---

(١) هو الامام أحمد بن عبد الحليم الحرانى المشهور بابن تيمية . كان إمام عصره فى سائر العلوم ، وهو وإن كان حنبلى المذهب إلا أنه كان يرى لنفسه ويعتمد على اجتهاده . وله مصنفات عدة ظاهر فيها التمكن والاجتهاد . ولد بحران سنة ٦٦١ هـ وتوفى سنة ٧٢٨ هـ

العامة وأشباه العامة أنفق ، وإذا كان كثير اللحن والتصحيف كانوا به أوثق ، وإذا ساء خُلقه وكثر غضبه واشتد حدة وعُسرة تهافتوا عليه . وقد كان فى ابن قتيبة شىء من هذا ولا سيما أنه كان به تسرع وتهافت ونهم وجشع ، وكفاك منه أن الرواة أجمعوا على أنه قدمت إليه هريسة ، فلم يصبر عليها حتى تهدأ سخونتها وتفثأ حرارتها ، بل تناولها وابتلعها فكانت القاضية عليه وذهبت فيها نفسه ، وليس بعد هذا دليل على السخف والرعونة

ونقلوا عن أبى العباس « ثعلب »[1] أنه قال فى بعض مجالسه : أمسكوا عن ذكر الجاحظ فإنه غير ثقة . ولعل من هنا أخذ أبو منصور الأزهرى[2] قوله : كان الجاحظ روى عن الثقات ماليس من كلامهم ، وكان قد أوتى بسطة فى لسانه ، وبياناً فى خطابه ، ومجالاً واسعاً فى فنونه ، غير أن أهل العلم والمعرفة ذموه ، وعن الصدق دفعوه .

وهذا كلام لا يضير الجاحظ أن يقال فيه مثله ، لأنه لا دليل فيه ولا برهان عليه . وكيف يصح من أبى منصور أن يرسل الكلام هكذا على عواهنه دون أن يشد أركانه بحجة قائمة أو سلطان مبين ؟ !

وهذا البديع الهمذانى[3] يصف الجاحظ فى إحدى مقاماته بقوله : إن

---

(١) هو أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب ، أحد أئمة النحو من الكوفيين وكان عارفا بالشعر والمعانى والغريب . ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفى سنة ٢٩١ هـ

(٢) هو أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى : كان لغوياً أديباً ، أسرته القرامطة فبقى فيهم دهراً ، وهو صاحب كتاب « التهذيب فى اللغة » وكان ثقة فيما يروى من اللغة حجة فيما ينقل فى تهذيبه . ولد سنة ٢٨٢ وتوفى سنة ٣٧٠ هـ

(٣) هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذانى الكاتب الشاعر المشهور . له كتاب المقامات وعلق عليه شرحاً موجزاً الشيخ محمد عبده

الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف ، وفى الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائقاً ؟ قلنا : لا . قال : فهلموا إلى كلامه ، فهو بعيد الاشارات ، قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ؛ فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ؟ أو لفظة غير مصنوعة ؟

وأنا أحتسب قول البديع هذا فى جانب الجاحظ ولا أحسبه عليه ، لأن هذا الوصف قل أن يضطلع به أديب ، أو ينهض به بليغ أريب . ولست أظن فى البديع الجد فى النيل من الجاحظ أو الإفتيات على مقامه فى العلم والأدب ومنزلته فى صنوف البلاغات ، وما أرى ذلك من البديع إلا من باب رياضة اللسان على قوة البيان . وإن كان لم يعد الحق فى وصفه لشعره

ويقول القاضى الباقلانى[1] : قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لا يؤخذ فيه ، والباب الذى لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه معيباً ، ونطاق قوله ضيقاً حتى يستعين بكلام

وكتاب الرسائل وعلق عليه شرحاً الشيخ ابراهيم الأحدب . وديوان شعر صغير . مات سنة ٣٩٨ هـ

(١) هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى البصرى . شيخ من شيوخ العلم والدين نشر بقوة بيانه وفصاحة لسانه وماضى حجته مذهب الأشعرية ، وناظر بعض المعتزلة بحضرة عضد الدولة بن بويه الديلمى بشيراز ، ثم أرسله عضد الدولة إلى ملك الروم فى مهم من شؤون الدولة فقام بسفارته خير قيام ، وكان له هناك شأن لفت إليه الأنظار وكان موضع الحفاوة والاكبار وله مؤلفات عدة أشهرها وأبقاها كتابه « إعجاز القرآن » ، توفى فى ذى القعدة سنة ٤٠٣ هـ

غيره ، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ، وفصل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه فى أثناء ذلك فسطور قليلة ، وألفاظ يسيرة ، فإذا أحوج إلى تطويل الكلام خالياً عن شىء يستعين به — فيخلط بقوله من قول غيره — كان كلاماً ككلام غيره . فإن أردت أن تحقق هذا فانظر فى كتبه فى « نظم القرآن » وفى « الرد على النصارى » وفى « خبر الواحد » وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، هل تجد فى ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع أو كلام مليح ؟ على أن متأخرى الكتّاب قد نازعوه فى طريقته ، وجاذبوه على منهجه ، فمنهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم من أَبَرَّ عليه إذ باراه . هذا أبو الفضل بن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه فلم يقصر عنه ، ولعله قد بان تقدمه عليه لأنه يأخذ فى الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ، ويكملها على شروط صنعته ، ولا يقتصر على أن يأتى بالأسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله فى كتبه متى ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام الناس أوراقاً ، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً ؟

وعبارة الباقلانى كما ترى لا تدل على أنه لا يرى الجاحظ شيئاً وإنما هو بسبيل المقارنة بين كلام الله عز وجل وكلام المخلوقين ، وأى كلام يرتفع على كلام الله سبحانه وتعالى ؟ على أن الباقلانى قد روى عن الجاحظ قول غيره فيه دون أن ينبذه من لدنه بشىء إلا ما قاله عن بعض كتبه الخاصة بما هو معنى به من الكلام على نظم القرآن وإعجازه . وإلا فليس مثل القاضى الباقلانى من تخفى عليه مزايا الجاحظ وخصائصه التى بذّ فيها من تقدمه وأتعب من جرى على أثره ممن تأخر عنه . على أن فى تفضيل الباقلانى لابن

العميد فى بعض ماهو من شأنه على الجاحظ ، مفخرة للجاحظ نفسه، واعترافاً بفضله، وتقديراً لبلاغته، لأن ابن العميد يعد من تلاميذ الجاحظ الذين تخرجوا بكتبه وترسموا خطاه فى بيانه وقوة عارضته وبليغ أسلوبه . ولو كان كتاب الجاحظ فى نظم القرآن بين أيدينا لعرفنا إلى أى مدى كانت استعانة الباقلانى به فى تصنيفه « إعجاز القرآن » لأنه مامن أحد جاء بعد الجاحظ وحاول الكتابة أو التأليف إلا وكان أكثر مادته التى يعتمد عليها إنما هى كتب الجاحظ